سورة إبراهيم

obeikandl.com

﴿ سورة إبراهيم ﴾

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾

﴿ الر ۚ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾ ﴾

أى لتخرجهم من ظلمات النفس وكثافة الروح والذات إلى نور النفس العارفة بربها الراضية المرضية، فهذا الداعى إلى الله بإذنه كان الواسطة المخلص للبشر من ظلمات أنفسهم وحجب أهوائهم فأخرجهم إلى عالم الإنطلاق الروحى فى الكون، فتدخل النفس فى مقام المشاهدة، يقول سبحانه: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ ﴾

وأيام الله هى أوقات التجليات الإلهية والنفحات العرفانية، وطالب الحق سبحانه العارف بتقصى تلك الأوقات وتحريها واقتناص فرصها، كى يفوز فى تلك الأيام بما يكرم الله العارفين من نفحاته.

ويقول شاعر القوم:

وكل الليالى ليلة القدر عندنا كما أن كل أيام اللقا يوم جمعة

ويقول ﷺ مذكراً للسادة العارفين بتلك الأيام الإلهية: ((**ينزل ربنا فى الثلث الأخير من الليل فيقول هل من داعٍ فأستجيب له هل من**

مستغفر فأغفر له)).

وإنما أمر الشارع أهل المعرفة بتقصى تلك الأيام كليلة القدر والساعة التى يستجاب فيها الدعاء يوم الجمعة لحضهم على عدم فوات تلك الأيام منهم، فهم أحق الناس بتلك النفحات فى تلك الأيام، لكونهم خاصة الله فى أرضه.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴿٧﴾ ﴾

اعلم أن كل شاكر سيأخذ زيادته من جنس ما شكر ربه عليه، وتفصيل ذلك أن أهل الدنيا يشكرونه سبحانه على ما أعطاهم الله من دنيا فيعطيهم الحق سبحانه الزيادة من جنس دنياهم التى شكروه عليها.

وأهل المعرفة يشكرونه سبحانه على ما أعطاهم الحق سبحانه من معارف وحقائق، فيعطيهم الحق سبحانه الزيادة من جنس ما شكروا، وهى المعرفة بالله.

يقول سبحانه وتعالى عن هذه الزيادة لكلا الفريقين: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾.

واعلم أن العارفين كرهوا أن يشكروا الله على ما أعطاهم من الدنيا، فقد روى أن أحمد بن حنبل ﷺ لما جاءته الدنيا فى أواخر عمره وجاءته عطايا الملوك والخلفاء بكى ورد ذلك، وقال: لقد زهدنا فيها ورددناها ونحن فى أول العمر فكيف نقبلها ونحن فى هذا السن.

وقال سيد الزهاد على بن أبى طالب كرم الله وجهه: **يا دنياغرى غيرى طلقتك ثلاثا طلقتك ثلاثا طلقتك ثلاثا.**

فلا شكر لهم على دنيا، وإنما يعتبرون أن ذلك من باب الاختبار لهم والاستدراج، ويدفعون ذلك عن أنفسهم، ويطلبون من الله إزاحة الدنيا من طريقهم، وأما شكرهم بعد تناول الطعام، فإنما هو شكر لسد

كفايتهم من الجوع فقط، أما جمع الدنيا والمال والتكالب على ذلك فلا يحمدون الله عليه، وإنما يطلبون منه سبحانه أن يعافيهم من التعلق بغيره.

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

أى أن أعمالهم الصالحة، ومهما فعلوا من أعمال الخير نحو إغاثة ملهوف أورد ظلم أو إطعام حيوان جائع أو كسوة فقير فلن تقبل منهم هذه الأعمال، وما هى إلا كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف، وهذا كله بسبب كفرهم بمن خلقهم وذرأهم وبرأهم.

ثم وصفهم الحق سبحانه بأنهم لا يقدرون مما كسبوا من تلك الأعمال الخيرة على شئ منها، كى ينقذوا به أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة.

فلا خير بجوار كفر برب خالق بارئ عظيم، فأى خير يقبل وهم يكفرون بالرحمن ؟ ونص الشيخ الأكبر فى الفتوحات على أن الكفار لا يخرجون من النار، وإنما سيذهب عنهم عذابها وسيحسون بنعيم وهمى بداخلها، واحتج بقوله سبحانه: ﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ فإنه سبحانه عمم الرحمة لكل الأشياء وأطلقها بدون تقيد، والكفار من جملة تلك الأشياء التى عممت، فلا بد أن يصيبهم شئ من رحمة الله.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ

بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ ﴾

أى أنه سبحانه غير مستغنٍ عنكم، ومن هذا الخلق الجديد الذى يستبدله الحق بنا؟، فلن يحدث هذا، لكونه يعز على الحق سبحانه أن يستبدلنا بقوم آخرين، وذلك لمحبته لنا، وإرادته لنا منذ الأزل، فالكون لا يستغنى عن الله، وكذلك الحق لا يستغنى عنا، أقصد من عدم استغنائه عنا، استغناء فى البقاء، لا استغناء حاجة إلينا، فحاشاه سبحانه أن يحتاج إلى العدم.

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ ﴾

وهذه هى المعرفة الإبليسية بالحق، فإنه ــ أى اللعين ــ أعرف الناس بالحق سبحانه، ولكن قصم ظهره التكبر والتعالى فى حضرة الله عز وجل.

وهو ههنا ــ أى اللعين ــ أعرف بالله من أبناء البشر الذين عصوا الحق سبحانه.

وقد تكلم الحلاج ﷺ فى كتابه الطواسين عن المعرفة الإبليسية وأتى بعجائب لا تحتملها العقول، ولنا تعليق لطيف وشرح على كتابه الطواسين، وقد طبع فى القاهرة.

واللعين قد استغل معرفته بالله فى أذى الخلق وإخراجهم عن دائرة

الاستقامة.

وهذه المعرفة بلغت ذروتها فى خوفه من الشرك بالله وتبرأه من الكفر، لمعرفته بعواقب ذلك حيث يقول: ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ ﴾.

وبرغم أنه المحرض على الكفر والأمر به بين الناس إلا أن لسانه لم يمتنع من النطق بالمعرفة ونفى الشرك عن الله، فنطقه شئ بهذا التوحيد، ووظيفته شئ آخر فافهم، فمثاله كمثال وزير عمل لدى سلطان وهو يعرف قدر هذا السلطان جيداً، ثم إن السلطان غضب على هذا الوزير وطرده، فخرج هذا الوزير على السلطان وصار يحاربه ويقاتله، ولكن إذا جاء ذكر السلطان بين أعدائه أنصفه ذلك الوزير ولذلك قال بعض العارفين: إبليس أعلم بالله ممن عصاه.

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يثبتهم بعلم المكاشفة، وبالرؤية البصائرية التى اختصهم الله بها على أهل الحجاب، فأنكروها عليهم، فكانت معرفتهم بالله معرفة شهود وذوق، لا معرفة كلام فقط، وهى المعرفة الحجابية، فإن العوام لن يأخذوا من المعرفة سوى اللفظ ، فانطبق عليهم الحجاب، دون دخول فى شهود وذوق، وليس من رأى كمن لم يرَ.

وعن هذا الذوق الشهودى يقول الصديق الأكبر مولانا وسيدنا أبو بكر الصديق ﷺ: **" لو كشف الحجاب ما ازددت يقيناً"** ويحكى الإمام

الشعرانى ﷺ أن ثبات العارف فى الدنيا بأن يطلعه مولاه على مقامه فى الجنة ويكشف له عما سيعطيه له من قصور ودور وبساتين وحور ثم قال فى المنن: وقد كشف لنا عما سيعطينا الله فى الجنة.

واعلم أن ثبات العارف فى انكشاف غطائه، وفى انفتاق رتقه، ومن هذا المقام ثبت الله يوسف عليه السلام برؤيته لبرهان ربه، لكى يصرف عنه السوء والفحشاء، وثبت الله إبراهيم عليه السلام فى النار، وثبت أبا بكر ﷺ مع النبى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج، فخذل الكفار وقال لهم: والله لو حدثنى بأكثر من هذا لصدقته، وثبته ﷺ يوم الردة، ومن هذا المقام ثبت الله أحمد بن حنبل ﷺ فى محنة خلق القر ن.

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ﴿٣٤﴾ ﴾

فكل سائل سأل الحق عز وجل، يعطيه الحق سبحانه ما سأله ذلك العبد، وإن رأى الحق تعالى عطاء أفضل له أعطاه الأفضل، ولا يُسأل سبحانه عن موعد العطاء، فربما قدم وربما أخر، فهو أدرى بما يصلح الإنسان وبما يفسده، فموعد إنجاز العطاء متروك للحق سبحانه متى ينجزه.

ومن هنا صح أن يقال أنه سبحانه آتانا من كل ما سألناه، فقد يكون المنع هو عين العطاء، وقد يكون التأخير هو عين التقديم، وقد يكون العطاء الأصلى خيراً وأفضل من الذى طلبه الإنسان وتشبث به.

فيا أيها المحجوب ألق بنفسك فى بحار التسليم خير لك من أن تلقى بنفسك فى بحار التدبير.

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

اعلام للسائرين إلى الله بإنجاز هممهم، وإتمام أنـوارهم، وإكمـال شهودهم، فلا يخافون من إخلاف وعد مليك عزيز مقتدر.

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

لكون الأرض الحالية لا تصلح لإجراء الحساب عليها، لما نالها من ظلم وفساد وتخريب، فلا بد من أرض جديدة طاهرة من كل ما ذكـر لأجل إقامة الميزان عليها وإنصاف المظلوم مـن الظـالم وإعطـاء الحقوق لأصحابها.

obeikandl.com